من خطاب خاص في مملكة القهر) من الكراهية المعاديّة لليهود - كيهود، وهي مُستنكرة - إلى خطاب التطبيع المُتنازِل، والذي لم يقض في منهاج العقيدة والتعليم على فكر الكراهية. ما يُسمّى اليوم بالخطاب الخشبي هو الخطاب الذي يعبّر عنه عبد الناصر في هذا الخطاب والذي أخرج الملايين من منازلهم بأثواب النوم مُطالبينه بالعودة عن استقالته (أنا شهدت على ذلك في حيّ المزرعة في بيروت في سن السابعة).
إن مسألة العلَم ليست تفصيليّة أو عاطفيّة فقط بل هي تعبير عن رفض لوجود دولة العدوّ. ومن المنطقي ان يـؤدّي فكر التطبيع الذي قاد إلى زيارة السادات وتلاها إلى قبول فكرة إسرائيل وإلى اعتبار رفرفة علمها على الأراضي العربيّة مسألة «واقعيّة». وفلسفة الواقعيّة تقابل فكرة المقاومة في التعاطي مع الاحتلال. واجمعت كل الدول العربيّة على الواقعيّة منذ مبادرة الأمير فهد (ومثل كل المبادرات السعوديّة للسلام مع العدو، كانت المبادرة مشروعاً أميركيّاً يحمل اسماً عربيّا-إسلاميّاً لإسباغ الشرعيّة). أما ما يتصل بـ«أعز أماني الأمّة العربيّة» فكان عبد الناصر يتحدّث هنا (وفق خبير الناصريّة، كمال خلف الطويل) عن إزالة آثار العدوان الثلاثي وإحقاق الحق للاجئين الفلسطينيّين عبر تطبيق قرار الأمم المتحدة بشأنه.
وقد سخر صادق جلال العظم، كما سخر غيره، من حديث عبد الناصر عن قوى أخرى وراء العدوّ عندما قال: «هناك قوى أخرى وراء العدوّ، جاءت لتصفّي حساباتها مع حركة القوميّة العربيّة». إن مرور السنوات على هزيمة 1967، ونشر وثائق متعلّقة بتلك الفترة يثبت بما لا يقبل الشكّ ان عبد الناصر لم يكن يبالغ أبداً، وأن الحكومة الأميركيّة كانت وراء العدوان. هذا لا يعفي النظام من عدم التحسّب وسوء التقدير، طبعاً. وعبد الناصر كان مُحقّاً ان قوى الغرب كانت مُصمّمة منذ الخمسينيات على تصفية حساباتها مع النظام المصري. كان عبد الناصر العدوّ عند الإدارات الأميركيّة بمثابة القادة الشيوعيّين، وكان القضاء عليه من أولويّات الإدارات الأميركيّة منذ أيّام الأخويْن دالاس، وقد تكشف السنوات أنه لم يمت ميتة طبيعيّة. والرئيس الأميركي ليندن جونسون كان ينظر إلى الصراع العربي-الأميركي بمنظور يجمع بين الفهم الإنجيلي للصراع، وبين تاريخيّة الصراع بين البيض في تكساس وبين المكسيكيّين. هذه كانت حدود معرفة جونسون الذي دشّن لعهد المساعدات العملاقة لدولة العدوّ (والتي فاقت الـ100مليار دولار بمجموعه منذ تلك السنة).
وبالرغم من الهزيمة فإن إصرار عبد الناصر على ترسيخ فكر رفض الاحتلال الإسرائيلي كان عنصر قوّة وساهم في البناء الجدّي للقوة المسلّحة المصريّة إذ يقول: «إن القضاء على الاستعمار في العالم العربي يترك إسرائيل بقواها الذاتيّة، ومهما كانت الظروف ومهما طال المدى، فإن القوى الذاتيّة العربيّة أكثر وأقدر على الفعل». من هنا فإن عبد الناصر وعى لدوره في تبعئة الرأي العالم العربي ضد الاستعمار الغربي لأكثر من سبب. ولقد ثبت بعد وفاته ان الاستعمار كان يتربّص بالنظام المصري من أجل القضاء على عبد الناصر وإنشاء ديكتاتوريّة متحالفة مع العدوّ الإسرائيلي. إن نظام كامب ديفيد ما كان يمكن ان يمرّ لو أن عبد الناصر بقي حيّاً. هناك خطاب لعبد الناصر على «يوتيوب» من عام 1970 وفيه يشرح عبد الناصر رفضه القاطع لأي تسوية مع العدوّ حتى لو تخلّى العدوّ عن كل سيناء. والخطاب المذكور يصل إلى ذروته في قرار عبد الناصر بتحمّل المسؤوليّة «كلها» (لم يكن مشروع خطاب هيكل يتضمّن تحمّل كامل المسؤوليّة من قبل عبد الناصر) عن الهزيمة. هذا القرار كان نادراً، ولا يزال، في السياسة العربيّة. عهدنا بالحكّام العرب انهم يتحمّلون كل المسؤوليّة عن الخير - لو عمّ - ويُحمّلون المسؤوليّة كلّها لأدواتهم عن قراراتهم فيما لو سادت نقمة ضدّها. لكن عبد الناصر لم يكتفِ بتحمّل المسؤوليّة الأدبيّة والأخلاقيّة والسياسيّة والعسكريّة، بل هو تخلّى - وفي عزّ قوّته وشعبيّته - طوعاً عن السلطة. حاول إعلام آل سعود فيما بعد ان يصوّر الاستقالة على أنها مسرحيّة وهناك بين الساداتيّين مَن روّج لفكرة ان المخابرات المصريّة كانت وراء حشد المتظاهرين (في ساعات الليل) لكن من عاش تلك الفترة وشاهد بأم العين الناس تخرج من منازلها غاضبة وتهتف «عبد الناصر يا حبيب، بدنا نحرّر تل أبيب»، يعلم أن استقالة عبد الناصر كانت حقيقيّة وأن المطالبة الشعبيّة بالعودة عنها كانت حقيقيّة أيضاً. طبعاً، إن إصرار الناس على إبقاء عبد الناصر في سدّة المسؤوليّة هو تسليم منها بضرورة ان يُصلح هو ما كان مسؤولاً عنه، من إفساد لنظامه أو تسيّب في وضع خطط عسكريّة وعدم إعداد جدّي. وقد أحسن عبد الناصر في إفهام الجماهير بأن مشكلة الغرب الاستعماري ليست معه هو شخصيّاً وإنما مع مجمل العالم العربي. لكن الأنظمة التي تلت الحقبة الناصريّة دجّنت وطوّعت وقولبت وسيّرت الجماهير العربيّة على مسار مختلف من المسار الذي رسمه جمال عبد الناصر. إن الزمن الأميركي تناقض مع وجود عبد الناصر، وهيمنة المشروع الأميركي تطلّب إزالة عبد الناصر وثقافته وشعاراته من العالم العربي.
أعترف انني في موضع خطاب النكسة أعيدُ النظر. أعترف أنّني نشرتُ مقالة عام 1994 في مجلّة «العالم الإسلامي» عن النزعات الجبريّة في خطب عبد الناصر وصدّام بعد الهزائم العسكريّة. وأعترف أنني استشفيتُ آنذاك

> خطاب النكسة يعكس شخصية زعيم له من الفضائل الكثير ومن النواقص المعلوم

ملامح من الجبريّة الجهميّة في الخطاب المصري الرسمي بعد 1967 في محاولة لتسويغ الهزيمة ولإلقاء المسؤوليّة عنها على كاهل «القدر»، الذي لا يغني عنه حذر. وأعترف ان العودة إلى ذلك الخطاب في الأيّام الحاليّة أتاح لي إعادة قراءة متأنيّة مع آن هناك الكثير في الخطاب من الذي لا يمكن الدفاع عنه، مثل:
1) انتقال عبد الناصر من اللوم الصريح لأنظمة الخليج (قبل الهزيمة)، وآل سعود تحديداً، إلى تحييدهم (بعد الهزيمة).
2) الانتقال من تقسيم العالم العربي إلى فئات من الأنظمة إلى فرض توحيد غير منطقي بينهم، والإيحاء أن الاستعمار يستعمل «قسراً» مطارات دول عربيّة.
3) الإفراط في الثناء على الأداء العسكري لجيش تلقّى واحدة من أشنع الهزائم العسكريّة في التاريخ.
4) الإيحاء ان الأنظمة العربيّة متوّحدة ضد العدوان الإسرائيلي.
5) التستّر على التواطؤ الذي شاب تلك الحرب من قِبل حليفه الأردني، وغيره من الأنظمة العربيّة.
6) الإفراط في اختلاق الأعذار لتسويغ الهزيمة العسكريّة.
7) الاعتراف بأن عبد الناصر وضع ثقته ليس فقط بالقيادة السوفياتيّة قبل الحرب لا بل بالحكومة الأميركيّة، وهذه الثقة كانت قاتلة - حرفيّاً - طبعاً.
8) إن مصطلح «إزالة آثار العدوان» كان محدود السقف ومتدنٍّ جداً بالقياس مع شعار تحرير الأراضي العربيّة، وفلسطين تحديداً.
تستطيع ان تخطّئ عبد الناصر على مواقف عدة وقرارات بالنسبة للقضيّة الفلسطينيّة: من وضع «منظمّة التحرير الفلسطينيّة»، لا بل من تأسيسيها، تحت سلطة النظام المصري لقطع الطريق على ظهور حركة مقاومة مستقلّة، إلى القبول بـ«مبادرة روجرز» إلى الموقف المصري الضعيف في «أيلول الأسود» إلى القبول بالقرار 242، لكن تقارن خطاب المرحلة ومواقف النظام الناصري بمواقف المرحلة الحاليّة ومواقف الأنظمة العربيّة فتجد فارقاً مهولاً. العدوان الإسرائيلي على غزة كان عدواناً عربيّاً في جانب منه، شاركت فيه كل الأنظمة، أو تفرّجت - من دون استثناء. الزمن الناصري رفع شعارات كثيرة ويحلو لأبواق آل سعود السخرية منها لكن صحة شعارات تلك المرحلة يثبتُ يوماً بعد يوم. إن خطاب النكسة، أو خطاب التنحّي، يمثّل أرفع نموذج من الخطاب السياسي العربي الحاكم، لا من حيث الصياغة البارعة (وهذا فضل هيكل) وإنما من حيث المصارحة. على عكس ما يُصَوّر خصومه من المتطفّلين على حاشية أمراء آل سعود، فإن الخطاب الناصري لم يكن مليئاً بالحشو واللغو الذي يتسم به الخطاب الرسمي الخليجي والبعثي والأردني والمغربي. كان الخطاب الناصري أقلّ خشبيّة من كل هؤلاء، وأكثر مصارحة. يكفي عبد الناصر فخراً انه الزعيم العربي الوحيد الذي نال من الشرعيّة الشعبيّة والسياسيّة ما لم يَنله الفائزون بالانتخابات التي تحظى بالرضى الأميركي في عالمنا العربي. لكننا ندخل في مرحلة عربيّة جديدة والعودة إلى الماضي - السحيق او المعاصر - لا تفيد. المهمّة هي في خلق مستقبل ثوري جديد زاهر يجعل من الحنين الى الماضي عقماً.

* كاتب عربي (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)

الأسلوب والطريقة! وقد قيل أن طرق الإيمان والهداية إلى الحقّ بعدد أنفاس البشر، وقد يخصّ ربُنا المبدع الحكيم المصور طريقاً خاصاً لكلّ روح وأسلوباً مميزاً لكلّ نفس وهذا ما يثبتهُ الواقع كلّ يوم، فللعالم المفكر طريق وللشاعر طريق ولكلّ طريقه الخاص بحسبَ عمله وعقله ومهنته واختصاصه وبحسب عوامل متعددة ليس لها أول وليس لها آخر.

■■■

اليوم بالذات يقف الإخوان المسلمون مع صمود غزة ودفاعها البطولي الأسطوري الشريف ضد عدوان الكيان الصهيوني عليها. لا شك في أنه موقف تشاركهم فيه كل جماهير وشعب الأمة والمنطقة عدا أولئك الصهاينة «العرب» من الحكام والأنظمة وبعض النخب الفكرية الغاطسة في براميل النفط العربي والتي دوخت عقولها انبعاثاتُ الغاز.
لا شكّ أن موقفاً كهذا يُشرّف كلّ من يحمله ويجعله أكثر قيمةً، لكن أن تتحول غزة ومن أمامها وخلفها فلسطين إلى طقوس تبرئة وتطهير، وتصبح شواطئ غزة الدامية المتعبة حمامات اغتسال ذمم وتبيض سير، فذلك أمرٌ غير مقبول، فلطالما اعتادت فلسطين المسكينة هذا الزيف وكانت طقساً شعارتياً حماسياً مربحاً للدول والأنظمة والأحزاب والنخب وحتى لشعوب المنطقة من دون أن يحقق كلُّ هؤلاء شيئاً مهماً يُسجل في سِفْر فلسطين.
يستعرض الإخوانُ الظلمَ الفادح الواقع على غزة [وهو بالفعل واقع مهين لكل الأمم وللإنسانية جمعاء]، لكنهم وفي تصويرهم الظلم والعدوان الواقع عليها، كادوا يستخدمون أسلوب الشيخ الإخواني ذاته، فلا يهمهم من تلك الصورة الكارثية التي ينقلوها من ساحات القتال المحاصرة والمقاومة البطولية في غزة سوى توجيه الاتهام والعداء للحكم الجديد في مصر، ولقطاعات الشعب المساندة له، وهي كما بدا ويبدو خلال الفترة الماضية بعد عزل الرئيس السابق ليست بالقليلة مطلقاً وتُعدُّ بالملايين من المصريين.

■■■

وهنا يجب الاعتراف أني لستُ مغرماً بهذا الحكم الجديد، ولن أكون أحدَ المطبلين له، طالما أنه يشكل امتداداً لثوراتٍ مشبوهةٍ ناقصةٍ مشوهةٍ متناقضة، احترمت كلها من دون استثناء - بما فيها حكومة الإخوان - المواثيق الدولية في المعاهدات الإقليمية خاصة معاهدة كامب ديفيد وبقاء السفارة الإسرائيلية في القاهرة.
وهنا يتبادر للذهن مباشرةً سؤال يدبّ في الرأس دبيبَ النمل حتى لا يترك تلفيفاً دماغياً في فصوص الدماغ إلا ويدخله ويسافر فيه رحلة تمسح كل تضاريسه جيئةً وذهاباً، السؤال صغير وبسيط وهو يتراقص بأحرفه أمامي بعد أن خرج للتوّ من الفص الجبهي:
لماذا لم تكن ثورات مصر الأخيرة في السنوات الثلاثة قادرةً على إلغاء اتفاقية كامب ديفيد وإغلاق السفارة الإسرائيلية؟!
وإذا كانت ثورتان متضادتان استخدمتا الذرائع نفسها في احترام القوانين الدولية بالنسبة للمعاهدات الإقليمية، فما الذي تحتاجه مصر حتى تلغي اتفاقية كامب ديفيد ولتغلق سفارة الكيان؟!
هل تحتاج زلزالاً أم طوفاناً كطوفان نوح أو ربما تنتظر خوفاً من انشقاق البحر وعودة بني إسرائيل إليهم ثانية.
هذه مشكلة مصر كلّها و تحديها على الدوام، لم يفلح منها حزبٌ ويضم الركب الفاشل الجميع، الإسلاميين أصحاب الشعارات الكبيرة وسياسات التمكين والليبراليين والحزبين التقليديين وفئات كثيرة إلاّ من رحم ربي ودعم المقاومة الحقّة المرابطة حول بيت المقدس.
مصر الحاضرة يا اخوتي تفضل التنمية والعيش على قضايا الأمة الكبيرة وفلسطين وهي ستأخذ وقتاً طويلاً للاستفاقة من جديد للحفاظ على أمنها القومي ولمواجهة أعدائها القاطنين على تخومها القريبة.

■■■

إن تحويل جهة النقد والاتهام ثم الحقد والكره

> إن تحويل جهة النقد والحقد من الكيان الصهيوني إلى مصر يعد كارثة سلوكية

والاستعداء من الكيان الصهيوني [الذي يقوم بالعدوان على غزة وفلسطين] إلى داخل مصر وتخصيصها هذا الحقد والاستعداء الشديد المكثف لأهلهم المصريين من قطاعات داعمة للحكم يعدُّ كارثةً سلوكية وعمى فكرياً منهجياً يكادُ لا يصدق ولا يعقل يصيب إخوانجية مصر فيحتار المرء في وصفهم بين الخيانة والمؤامرة أم بين الكفر والضلال، غير أننا لا نعمل وكلاء وقضاة لربنا في ملكوته بل نقتصر على ما قد علِم. يشبه هذا استخدام نصوص القرآن المحكمة في القتال مع المشركين الكفرة في ساحات المعارك وتطبيقها بين جموع المسلمين والأمينين بينهم في حاراتهم ومدنهم وبلدانهم المسالمة.
شيء مكرر من العبث والفوضى الفكرية المذهلة والتي تجتاح العالم العربي والإسلامي هذه السنوات، سنواتِ «الفوضى الخلاقة».
تصرفُ الإخوان يشبه كثيراً تصرفَ «الجهاديين الجدد» في فشلهم في فهم فقه الأولويات وسدِّ الذرائع والخطأ المبين في تمييز أعداء الأمة والدين ووجهات وجودهم، هل هم في فلسطين والأراضي المغتصبة أم هم في ديار العرب والمسلمين! خلل التوجه والاتجاه هذا طالما سمعت عنه مثالاً طريفاً إذ أن أهل مصر منذ زمن طويل ابتليوا بداء البلهارسيا وكانت النصيحة الطبية الذهبية للقضاء على هذا المرض الذي ينتقل عبر ماء المستنقعات والترعات الملوثة ببول المصابين بالمرض، هي الطلب من المصريين الذين يريدون أن يبولوا أن يغيروا وجهتهم وبدل أن يتجهوا إلى الترعة لقضاء البول أنه يجب عليهم أن يستديروا عكس جهة الترعة ويفرغوا ثمالتهم بعيداً من الماء.
الشيء الذي لا يحدث في مصر ويستمر داء البلهارسيا مستنزفاً الدماء من أجساد المصريين ويقضي على الكثير منهم وتظل المستنقعات والترع المصرية موبوءةً ومليئةً ببيوض البلهارسيا. وتستمر نصيحة تطلق في الفضاء كلَّ يوم يعرفها كلُّ المصريين «دير ضهرك للترعة» ولا من مستجيب.

* كاتب سوري